

غرور ذميم !!

نسى بنو إسرائيل اسمه لكثرة عبادته ، وإقباله على الله ، تقديسا
وتبجيلا ، وعرفه الصغير والكبير باسم (العابد) . .

ويأسعادة النفس حينما تستمع إلى هذا الاسم الجميل ، تنطق به الأفواه
وتلهج به الألسنة فيكون له في الآذان وقع السحر ، يعمل عمله في القلوب
والأفئدة ، وإنه لتبارك كهر بي يسيطر على الإنسان حينئذ ، فيرى نفسه مع
ما هو فيه من فقر وكرب ، وشدة وضيق ، أغنى الناس ، وأيسرهم ،
وأنعّمهم بالحياة ، وأن ما هو فيه من متعة ولذة . . متعة الروح ، ولذة
التقوى والصلاح ، لا يقاس بها شيء من لذات الحياة كائنة ما كانت
هذه اللذات .

وغرف الناس العابد في هذا الوقت ، رجل جدّ ونشاط ، ودأب
متواصل ، وسعى حثيث ، لا في أمور الدنيا ، بل في أمور الآخرة ، فيما جاء
به الأنبياء والرسل ، من تعاليم سامية ، وأخلاق فاضلة ، وسجايا حميدة ،
هي جماع الخلق الإنساني الرفيع ، الذي يتمناه كل فرد في هذه الحياة كائنا
ما كان . . !!

وإذا كان الناس يكبرون المادة دائما ، ويرفعونها حيث يجب ألا ترفع

السامية ، قد تتغلب على المادية الصافية ، وتعلو عليها ، فإذا بالناس يقدسون صاحبها وإن لم يكن ذا مال ، ويعرفون له قدره ، وإن لم يكن ذا منصب أو جاه . .

على أن أهل الحق لا ينظرون إلى هذه الناحية ، ولا يقيمون لها وزنا ، فهم لا ينظرون إلى الأشياء بعين الناس ، وإنما لهم في تقديرها ميزان آخر غير ميزان الناس ؛ لأنهم لا ينظرون إليها مادية توصل إلى ثروة أو جاه ، بل روحانية تدعو إلى الحق ، وتهدى إلى صراط مستقيم . .

* * *

والإنسان بخير ما دامت آماله لا تنطلق مع الشيطان هائمة في كل واد شاردة في كل طريق . . أما إذا أصاح لذلك اللعين وأطاع ، فالويل له ، والسعير عاقبته ومشواه ، وما أقساه عذابا ، وأوجعه عقابا . !

وما أقرب الشيطان إلى النفوس ، يحاول دائما أن يغزوها جهد الطاقة وقدرة الاستطاعة ، ويدخل إليها من كل طريق ، وهو لا يزال يطرق الأبواب في الخفاف وإلحاح حتى يلج ، وإذا وصل إلى القلب أفسد إيمانه بالله بشقى الوسائل ، ومختلف الطرق ، دون أن يشعر بذلك الإنسان المسكين ؛ لأنه كثيرا ما يأتي له من طريق الخير ، لامن طريق الشر .

إذا رأيت ذنبا فلا تستصغره مهما كان في رأيك حقيرا ، ولا تقترفه ، مهما كان في نظرك هينا ميسورا ، يمكنك أن تخلص منه بعد فعله ، وأن

تمحو أثره بعد اقترافه واجتراحه ، فإن هذا هو الجهل بعينه ، وربما كان هذا الذنب سبب بُعدك عن الله . .

وإذا بلغت بك العبادة مبلغاً ساراً ، فإنك أن تهبط أو تطمئن إلى ذلك ، أو تغترّ به ، فإن هذا أول طريق يصل منه الشيطان إلى قلبك وفؤادك ، دون طويل مشقة ، أو كبير عناء ، وأنت بخير ما دمت تعلم عن يقين ، وتعترف عن إيمان ، أنك لا تزال مقصراً . فإذا ما داخلك الغرور ، فقد هويت يا مسكين ، وأفلت منك الزمام . .

وإذا رأيت مذنبا فلا تعتقد أنه بعيد عن الجنة ، قريب من النار . . فإنك أبعد الناس عن فهم عواقب الأمور ، والعبرة بالخواتيم ، وربما كان هذا الفاسق أقرب إلى الله ، وإلى الجنة من أعبد العابدين ، الذين يحرقون الناس . . !!



وفي البيئة نفسها التي درج فيها العابد ، واشتهر بهذا الاسم الجميل ، درج رجل آخر ، ولكنه حمل اسماً غير جميل . . إذ عرفه بنو إسرائيل شريراً ، خليعاً ، لا يميل إلى الخير ، ولا يعرف طريق العبادة والزهد ، والتقرب من الله الخالق الأعظم ، فنسوا اسمه ، وأطلقوا عليه اسم (الخليع) . .

تراه وتشمئز منه النفوس ، ولا يكاد أحد من الناس يصيخ إليه ، أو يغير قوله أى اهتمام .. وكيف يهتم به أحد ، وهو على ما هو عليه من الفساد والعصيان ، يعطى نفسه ما تشتهى من اللذات ، ويفرق معها فى بحر خضم من الشهوات والآثم ، التى يعرفها الناس ، والتى لا يعرفها أحد منهم ، وكأنه أصبح متخصصا فى هذا النوع الرخيص من مطالب البدن ، إلى حد جعله أقرب ما يكون إلى حياة البهيمة المطلقة ، والشهوانية الأثيمة ، التى تنذر بالشر ، وتعلن الخطر فى كل مكان .

لقد كان الناس يتطيرون منه كلما يرونه ، وإذا رآه أحدهم فى الطريق ، ابتعد عنه ، وكأنما هو خطر ماحق ، وشر مدمر مبير ، بينما يعتقد الناس أن رؤية العابد سعادة لا تقوّم بمال ؛ وكيف لا يكون ذلك ، وهو إذا سار تتبعه ظلة لتتبعه عنه حرارة الشمس ، ووهج الحر ؟ . أليس هذا إكراما من الله ؟ أليس هذا إعلانا للناس ، وإرشادا لهم ليجتنبوا طاعته البهية ، ويسعدوا بصحبته ، وينعموا بالتبرك به ؟ ! .

فرق كبير بين حالين ، هو الفرق بين الرجلين .. بين النور والظلمة والهدى والضلال ، أم بالحرى بين النعيم والجحيم ، والجنة والنار !! .

* * *

وادرِك هذا كل من الرجلين ، أما العابد ، فكان فى نعيم دائم لهذا الإدراك ، فهو يشعر بمحبة الناس له ، وإقبالهم عليه ، وإنه لسعيد بهذا

الاحترام الذى يجده فى كل سبيل ، ويراه فى كل طريق .. إنه حينه يسير فى أى شارع من شوارع البلدة ، يتقاطر عليه الناس من كل حذب وصوب ، الشيوخ والشبان ، الرجال والنساء ، الصبية والأطفال ، يقبلون يده ، ويتمسحون به ، ويلتمسون البركات تضيئ عليهم رضاء الله .
السمات دائماً فى الوجوه ، والفرحة فى الأسارير ، والإقبال لا الإدبار ، والترحيب لا الفرار .

أما الخليع ، فكان فى جحيم دائم ، وعذاب أليم ؛ لذلك الإدراك أيضاً ، فهو يشعر بكرهه الناس له ، واعتقادهم أنه رسول الشيطان على الأرض ، يفرون منه كلما يرونه ، ويسخر منه الصبية والأطفال ، ويجرون خلفه يرمونه بالطوب والحجارة ، ويرى ذلك أهلوهم ، وذوو قرباهم ، فلا يحركون ساكناً ، ولا ينهونهم عن ذلك العبث الأليم ، بل يشجعونهم ويدشون فى وجوههم ، وهذا هو التشجيع بعينه ، مما يدفع الأولاد ، إلى مضاعفة عذابه ، والتنكيل به ، وبالشقوة من يعبت الأطفال بمضايقتهم !! .

* * *

جلس العابد ذات يوم فى الطريق ، وكان الحر شديداً ، والقيظ يكاد يذيب الرءوس ، ولكنه لا يشعر بشيء من هذا ، فالغمامة تظله ،

الطبيعة القاسية ، والسكنه فى حصن من هذا كله ، بعبادته وتقواه ،
فلتشتد الشمس كما تحب وتهوى ، وليعنف القيظ كما يريد ، فإنه فى نعيم
وروضة من رياض الجنة .

ومر به الخليع ، فأعجبه هذا المنظر ، وأذهلته هذه الصورة حيناً ، فوقف
يتأمل فى تفكير وأناة .. وسبح به الفكر فى عوالم شتى ؛ وآفاق واسعة .

أى سعادة هذه السعادة التى يتمرغ فى أعطافها العابد ؟ وأى شقاء هذا
الشقاء ، الذى أصطلى به أنا ؟ .. إن السبب فى هذا اتباعى شيطانى ،
واندفاعى مع هواى .. إننى لو فعلت كما يفعل العابد لرضى الله عنى ،
ولجعلنى فى نعيم يشبه هذا النعيم ، وممتعة تشبه هذه الممتعة .. ولكنى طالما
أذنبت ، حتى أصبح الذنب عادة متأصلة فى ، أحنو إليه ؛ ولا أعيش إلا به
يا لله ألا يجدر بى أن أترك هذه الطريق الأثيمة التى تدفع بى دائماً إلى هوة
العذاب ؛ والألم النفسانى الذى لا أكاد أطيق هوله وعنفه الآن ؟ إن
الوقت قد حان لأتجه إلى الله بقلبى وقالبى ، عسى أن يصفح عنى ، ويغفر
لى ذنبى ، وإنه لواسع المغفرة ، عظيم الصفح ، إن خير طريق لذلك أن
ألمس البركات من العابد ، وأجلس بجانبه ، عسى أن ينالنى من بركاته
ما يقربنى إلى الله .

واتجه الخليع بهذه الروح التى تفيض ندماً على ما فات ، وتحمل
أصدق أنواع التوبة الخالصة الصادقة ، إلى حيث يجلس العابد ، لينال
من بركاته لعل الله يرحمه ..

ورآه العابد متجها إليه ، فاربداً وجهه ، ووجد من نفسه الكرب والضيق ، وعجب لهذا الرجل الدليل الحقير ، الذى يسير مع آثامه ومنكراته إلى أبعد حد ، كيف يتجه إليه ، ويتقرب منه ؟ !!

إن هذا لكثير جداً لا يحتمله . . فهو عابد بنى إسرائيل ، العالى المنزلة ، السامى المكانة ، المقرب إلى الله . . أما هذا فهو خالص بنى إسرائيل الدليل الحقير ، الذى يرى فيه كل إنسان عنوان الشر ، ومبعث الفساد . . فكيف يحب إليه ويقرب منه ؟ . . إنه لو جلس بجانبه فلا بد أن يدنسه ويخفض من قدره ، وينال من مكانته . فلن يسمح له بهذا أبداً ، ولن ينياله هذا الشرف الرفيع . . إن مكانه هناك فى الخانات ، والأزقة المظلمة ، حيث يشرب الخمر ، ويجالس العاهرات ، وليس مكانه هنا ، بجانب العابد العظيم . . عابد بنى إسرائيل ، الذى يقدره كل إنسان ، ويحترمه كل مخلوق . . !!

إن هذا الفضل الذى أنعم به الآن ، نلته بسعبي ومجهودى ، فكم سهرت الليل ، يقط القلب ، واجف الفؤاد ، دامع العين ، موصول الأنين . . !!

أما هو ، فطالما تمتع بلذيق الرقاد ، وطيب العناق ، فكيف به الآن يريد أن يلتمس من بركاتى ، وينعم بالجلوس إلى جانبي ، إن هذا لن

واتجه الخليع إلى العابد ، بنفس راضية ، وقلب كله الأمل الحلو ،
والرجاء الكبير ، والفرح الغامر ، وما كان أشد دهشته حينما لم يجد ترحيبا
به ، ولا رضا عنه ، وإنما وجد الغلظة والجفوة ، والشدة والقسوة ، والطرْد
والحرمان ، ولا تزال كلمات العابد ترنّ في أذنيه :

— قم عنى . . لا تدن منى . .

يا الله كيف هذا ؟ إن الذى خلقه وسواه ، ورزقه وتولى رعايته . أمهله
ولم يعاجله ولطف به ، وطالما ستره فى كثير من المواقف ، وهو القوى القهار ،
فكيف بهذا الخلق يرده عنه ، ويدفع به بعيدا وكأنه يخشى أن يلوثه ،
أو يدنسه ؟ أهكذا يكون شأن القوى مع الضعيف ، إن الأنم لا يفترق
عن الضعيف المسكين فى ناحية ما ، بل حالها سواء ، كلاهما فى حاجة إلى
العون والمساعدة ليصل إلى الطريق السوى ، والصراط المستقيم . . إن حاله
يشبه الغريق ، الذى أشرف على الهلاك ، فهل يجدر بالقادر القوى ألا يسمع
لصيحاته ، ولا يصيخ لندائه ، وأن يعرض عن يده الممتدة فى ذلة ومسكنة
وخضوع ؟ إن هذا ليس من شيمة الكرام . . إن الواجب أن تمتد يد
القوى لتنقذ الضعيف ، وفى هذا إحياء نفس ، ربما يصلحها هذا الإنقاذ
وينتشلها من وهدة الإثم ، ومباءة الضلال المبين . . ! !

* * *

وغضب الله على العابد حينما وجد الشيطان سبيلا إلى نفسه ، فملاً
الغرور قلبه ، واعتز بعبادته ، وأيقن أنه نال ما نال بجهده هو ، لا بتوفيق الله

سبحانه له ، مما دفعه إلى احتقار مخلوق لا يفترق عنه في شيء ، بل هو في ذلك الوقت قريب من الله ؛ لأنه ندم على فعله الذميمة ، وخطاياها الأثيمة ، والندم هو التوبة الصادقة التي لا رياء فيها ولا نفاق . .

وأوحى الله إلى نبي ذلك الزمان ، الحكم العادل :

« مرهما فليستأنفا العمل . . فقد غفرت للخليع ، وأحببت عمل العابد . . » .

وهكذا وقف كلاهما . . العابد والخليع ، مرة ثانية ، على أول درجة من درجات الحياة ، يتطلعان إلى الأفق البعيد ، لا يدرى أحدهما ماذا ستكون نهايته ، وما ينجي له القدر في طيات كتمانته ؟ ؛ لأن العبرة دائماً بالحوادث . .

لقد تساوت الرؤوس . . فوقهما ينظران إلى الحياة ، نظرة ساذجة حيرى وكأنما ولدا من جديد . . ! !